



نابينا

Journal Homepage: <http://nabiyuna.com>
ISSN: 2789-4290 (Print) ISSN 2789-4304 (Online)



تاريخ التسلم: ٢٠٢٤ / ٨ / ٣

تاريخ القبول: ٢٠٢٤ / ١٠ / ١٩

تاريخ النشر: ٢٠٢٤ / ١٢ / ١

السنة (٤) - المجلد (٤)

العدد (٨)

جمادي الثاني ١٤٤٦ هـ

كانون الأول ٢٠٢٤ م

DOI: 10.55568/n.v4i8.17-34



الشهادة انتصاراً

في واقعتي : (الرجيع وبئر معونة)

-قراءة في القرآن الكريم-

رحمن غركان عبادي البديري^١

١ جامعة القادسية/ كلية التربية / قسم اللغة العربية، العراق ؛

rahmangar2013@gmail.com

دكتوراه في اللغة العربية - النقد الادبي والبلاغة/ أستاذ

الملخص

في واقعتي : بئر معونة و الرجيع استشهد نخبة من صحابة رسول الله ﷺ فكان ذلك الاستشهاد انتصاراً للدعوة الالهية - المحمدية ، ليس بالمنظار المباشر بل هو الوصول بالمعنى الرسالي القرآني إلى أنقى سبل التبليغ و النصح و الارشاد حد بلوغ الحياة بالموت، أو النصر بالشهادة .

استيعاب الشهادة بوصفها نصراً ممتداً من الدنيا الى العليا، و من الحياة المؤقتة الى الحياة الدائمة، يتحقق عند مكوث القلب في ركن الايمان متمسكا بالعروة الوثقى، و يقوم استشهاد الإمام الحسين بن علي عليه السلام في واقعة الطف ليمثل هذه الرؤية القائمة على: الديمومة بالعطاء، و على النصر الدائم بالشهادة الراشدة الهادية المهدية .

ما كان للرسالة الالهية المحمدية السمحة أن تصل للناس، نفعا ماكثا في الارض من دون نهج الشهداء في واقعتي (الرجيع و بئر معونة) لأن غدر الكافرين يحضر في كل زمان و مكان، وهو ما يستدعي شهادة تدمغه؛ لأنه زاهق بدءا و مآلا فهو النهج الملهم و الدرس الدائم.

يمثل المعنى القرآني الصادر عن آيات الشهداء التي أوردتها البحث مفهوما يكتمل بآية البيع التي اشترى فيها الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، كونه الوعد بحياة من نصر دائم مستمر.

الكلمات المفتاحية: واقعة الرجيع - واقعة بئر معونة - المعنى القرآني - آيات الشهداء - آية البيع - الشهادة

تقديم

يذهب هذا البحث في قراءة حادثتي: الرجيع وبئر معونة اللتين استشهد فيهما نخبة من صحابة رسول الله ﷺ، فقد ذهبوا شهداء على ما عملوا عليه ولأجله وفيه مما هو رضا الله ورسوله، فكانت خلاصة ما صاروا إليه بين يدي ما خرجوا لأجله أن استشهدوا (رضوان الله عليهم)، وذلك الاستشهاد ليس هزيمة بين يدي ما قصدوا تحقيقه، بل هو انتصار آخر؛ لأن الحقيقة التي نشدوها تمثلوها في موقف الشهادة فكانت انتصاراً ينافس الهدف الذي قصدوه، فكأنهم حققوه بالمعنيين: الدنيوي المباشر، والأخروي الدائم.

وقد توزع البحث على أربعة مطالب تحيط بالمعنى الذي ذهبت إليه عتبة العنوان، إذ كان المطلب الأول: الشهادة بوصفها انتصاراً لا هزيمة فيه. والثاني: في مناسبة ذلك ومثاله أعني (شهداء الرجيع وبئر معونة). والثالث: ثنائية (الهزيمة - الانتصار). والرابع: المعنى القرآني. ويقف البحث بعد ذلك عند ملخصه.

١ - الشهادة انتصاراً

النصر الحقيقي لا يتمثل في الحصول على الأهداف المادية المباشرة التي ينشدها المنتصر فقط، بل تمثل المعنى الحقيقي للأهداف المنشودة، تمثل ديمومة وحضور للمعنى منها في قلوب الناس، لأن المعنى من المادة هو الدائم، والجسد أو الحواس تحقق مؤقت، وما لم يقترن النصر بديمومة المعنى المراد منه فلا قيمة مثمرة له، لأن ثماره ديمومة معانيه وجريان تحققها. ومن ثمة فالنصر تعبير بالمادة عن ديمومة المعنى فيها، وليس امتلاكاً للمادة لنشيدان تلك الديمومة. لذلك كانت الشهادة بين يدي النصر المادي المباشر أقوم قليلاً، في التعبير، وأبعد مقصوداً في الحضور، وقد ذهب القرآن العظيم إلى أن الذين قتلوا في سبيله ليسوا أمواتاً، لأنهم تمثلوا المعنى في النص، ولذا صاروا إلى الديمومة في الحياة، حيث خصهم الله سبحانه بأنهم أحياء عنده يُرزقون (آل عمران: ١٦٩).

ولهذا جعل الله سبحانه القصاص حياة أخرى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٩)، لأن (القصاص) ليس العقاب الحسي المباشر بقدر ما هو المعنى الصادر عنه كونه الدائم المثمر في العظة والإرشاد؛ لأن الإحساس بالعقاب فردي ذاتي، أما المعنى الصادر فجماعي متعدد دائم الحضور.

الشهادة انتصار دائم متعدد الثمار؛ لأن الشهيد مثّل بين يدي نفسه فانصر على حواسها، وبين يدي الجسد فارتفع عليه، وبين يدي الموقف فكان إنساناً آخر هو المعنى الشاهد الشهيد، لأن الشهادة موقف: القلب والروح والنفس العالية، لذا بدا جاريّاً مستمراً لا تعبره مرتين، يحضر في الزمكان حضوراً مختلفاً بحسب مستلهميه؛ فهو في المواقف العابرة درس، وفي الماثلة الهائلة قدوة، وفي الخلود من المعنى تمثّل وإحساس. ولما تعدد الذين يستعيدونه مستلهمين إياه في أزمنة ليست واحدة وأمكنة متعددة فقد صار المعنى متعدداً مثمراً مع كل جيل من المستلهمين ثماراً أخرى، حيث الشهادة موقف دائم، وهي في مسيرة القيم ثبات عليها، وفي مسيرة المثل خلوص إليها، وفي مسيرة المبادئ انتصار لها.

الشهادة في عمقها الدلالي خلوص إلى المعنى المراد، واعتراف به يصل حدّ الارتفاع على ماديّات تحقيق الانتصار، وحسيّات الامتلاك الدنيوي المباشر؛ فهي تضمّر مربعاً إشارياً يحيط بالمعنى الكامل منها يتمثّل في:

١- الشهادة بأن المعنى من النصر هو الدائم، وأن الشهادة لأجله من قبله أو من بعده، لا تغير من حقيقة كونها معناه الجامع.

٢- الشهادة بتمكّن المقصود منها والموصولة به تمكّناً إيمانياً عقدياً قلبياً وجدانياً روحياً ذا مجسات تأثيرية ملهمة.

٣- الشهادة للآخر بأقصى العذر، وأبلغ النصح، وأعمق الدرس، وفي هذه تكون (أنا الشاهد) قد بلغت من الآخر عذراً، ورسمت لمتبنّيات الوصول منهجاً.

٤- الشهادة للنصر بأنها - أعني الشهادة - معناه، سواء تحقق الهدف المادي الأرضي المباشر، أم تعذر في وقته؛ لأن الغرس منها أثرى عطاءً من سواه.

وهذه المعاني الأربعة: (المعنى، المقصود، الآخر، النصر) هي الجهات التي تمتلكها (الشهادة) لما تنطوي عليه من ارتفاع على المفهوم المادي للموت، وتجديد في المفهوم المحتفي بكثير من التكامل للـ (حياة)، واستعادة مائة للأشياء في حياة الناس، لأنها ليست حياتهم الدنيوية التي يعيشونها ثم يصيرون بعدها إلى موت.

وفي واقعة (الرجيع) كان الشهداء الستة من صحابة رسول الله ﷺ قد تمثلوا المعنى الكامل للنصر في الجهات الأربع التي توزّعها استشهادهم في:

١- أن النبي ﷺ بعثهم ليفقهوا الآخر بدين الله بناءً على طلبه إلى النبي ﷺ، فكان إرسالهم بعثاً للمعنى القرآني الذي عاشه رسل النبي ﷺ إلى اليوم، وضلّ عنه الآخر المشرك الذي غدر بهم إلى اليوم؛ بدليل وصول التبليغ إلى ذلك الآخر - بعد ذلك - وصولاً إلهياً بعد الفتح، وما زال باقياً إلى ما يشاء الله، وارتفاع الرسل الستة إلى فردوس ربهم حضوراً دائماً، وكانت غلبة المشركين بالغدر هزيمة دائمة، وتحصل الناس من يومهم إلى قيام الساعة على معنى الموقف من المبادئ الإلهية، وليس من معاناة الأجساد البشرية المادية المؤقتة الطارئة. فكان بعث النبي ﷺ وصولاً واصلاً، وليس انقطاعاً، وجاءت ميتة الشهداء الستة حياة دائمة الجريان.

٢- الموقف من الآخر لدى (شهداء الرجيع) و(بئر معونة) نبوي - إلهي وليس بشرياً، لأنه موقف الحياة الدائمة، وهو ما يمثله مجرى حياة كل واحد منهم، من ذلك على سبيل المثال ما كان من (زيد بن الدثنة الأنصاري) لحظة استشهاديه حيث سأله أبو سفيان: ((أنشدك الله يا زيد أتحسب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه، وأنت في أهلك؟ والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأني جالس في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمداً. ثم قتله (نسطاس) بأمر أبي سفيان)).^١

فهذا الموقف من الآخر إلهي من جهتين: أولاها إلهية خالصة هي النبوة، وثانيها أرضية بشرية شريكة تتمثل في مواجهة المشركين بتفقيه المسلمين بدينهم أولاً، والنصح للمشركين بما يهديهم ثانياً، وفي كليهما فهم خالصون لله، وما ينفع الناس، ويمكن في الأرض.

٣- معنى النصر الشهادة متحقق بعد استشهاد الصحابة في واقعتي: (الرجيع وبئر معونة)، ذلك أن المعاجز التي تحققت بعد استشهادهم قالت بذلك بواقع الحال الذي هو أبلغ من نص المقال، من ذلك على سبيل الشاهد، أن خبيب بن عدي، وهو من شهداء الرجيع: حين أخرجه القرشيون إلى التنعيم لصلبه على الخشبة التي صلبوه عليها، طلب منهم أن يصلي ركعتين ... فوافقوا على طلبه، ثم بعد فراغه من ركعتيه أقبل عليهم قائلاً: أما والله لولا أن تقولوا: إنها طولت جزعاً من القتل، لاستكثرت من الصلاة ... ولما صلبوه جعلوا وجهه إلى غير القبلة، ولكنه ما يلبث إلا أن يستقبل القبلة، وكلما أداروه عنها استدار إليها حتى عجزوا عن ذلك فتركوه، ثم أنه حين أنزلوه من على الخشبة - بعد ذلك - تعلقته الأرض فلم يستدلوا عليه^٢.

٤- النصر متحقق باستشهادهم (رضوان الله عليهم)، لأن الهدف الذي ساروا إليه قد أنجز في عصرهم أولاً، وفي عصور الناس - بعد ذلك - إلى ما يشاء الله، ويتمثل ذلك التحقق، وذلك الإنجاز في الذي علموه من القرآن، ومن الستة بكيفيات استشهادهم سواء في (الرجيع)، أم في (بئر معونة) في ما خلصوا إليه استشهاداً:

- فقد ثبتوا على ما أرسلهم إليه رسول الله ﷺ، وذلك درس ما كثر في الأرض، دائم في السماء.
- سنّوا الثبات موقفاً، والإيمان عقيدةً، والطريق منهجاً في الدنيا خلوصاً إلى الآخرة؛ من ذلك أن الصحابي حرام بن ملحان صاح لحظة استشهاد غدرًا (فزتُ ورب الكعبة)^٥.

٢ العسقلاني ابن حجر، الإصابة في معرفة الصحابة، ٢/ ٤١٩.

٣ القرطبي ابن عبد البر، الاستيعاب في أسماء الأصحاب، ١ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩١٠)، ١ / ٤٣١.

٤ النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، فيها جاء فيه ما يخص واقعتي (الرجيع وبئر معونة).

٥ البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، بتحقيق: مصطفى الذهبي (دار الحديث)، فيها جاء فيه ما يخص واقعتي (الرجيع وبئر معونة).

- سنَّ استشهد خبيب بن عدي صلاة الركعتين قبل قتله، وهو بحسب المؤرخين ((كان أول من صلى ركعتين لله قبل قتله، وهو أول من سنَّ ركعتين عند القتل))^٦.

- سنّوا مسايسة العدو من دون المساس بالعقيدة، ومن دون أن يشوب إيمانهم شائبة، من ذلك موقف عاصم بن ثابت ومرثد بن أبي مرثد وخالد بن البكير، حين قال لهم المشركون: لكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم. ولكنهم قالوا: لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً. فقاتلوا حتى استشهدوا. وقد غدر المشركون بأصحابهم الثلاثة الآخرين (عبدالله بن طارق وخبيب بن عدي وزيد بن الدثنة) مع إعطائهم الأمان، بما يؤشر صحة قرار عاصم وصاحبيه بعدم الأخذ بعهود المشركين، فهم ليسوا بأهل عهد، ولا ذمة، ولا عقد في هذا الشأن.

- تمثلوا الهدف الذي هو (يفقهون الناس في الدين ويعلمونهم شرائع الإسلام)^٧، أو (يعلمون الناس القرآن والسنة)^٨، والأول كان هدف (شهداء بئر معونة)، والثاني كان هدف (شهداء يوم الرجيع)، وكلا الهدفين يجري في نهر إسلامي واحد هو أن يعلموا الناس كتاب ربهم وسنة نبيهم، ويكشفوا لهم حقيقة الشرك وأهله. والذي يتدبّر استشهاد الستة (شهداء يوم الرجيع)، والسبعين رجلاً من القراء شهداء (بئر معونة) يقف أن حياتهم بين يدي ذلك كله من الموقف من المشركين، إلى كيفية مواجهتهم، إلى ثباتهم على عقيدتهم وتمسكهم بدينهم وانتهاهم لنبيهم هي الحياة الدائمة موصولة بتمثّل دين الله وسنة رسوله تمثّل ديمومة، وليس تمثّل مصلحة مؤقتة. بما بدا استشهادهم أوعظ في الدلالة على معنى النصر من حياتهم الدنيوية المباشرة، كونهم اشتروا النصر موتاً وباعوا الهزيمة حياة.

٦ البر، ١ / ٤٣١.

٧ ابن هشام، السيرة النبوية، بتحقيق مصطفى السقا وآخرين (مصر - القاهرة: مطبعة البابي الحلبي وأولاده، ١٠٣٦)، ٤ / ١٢٢-١٢٨.

٨ النيسابوري، بحسب ما أورده عن واقعتي (الرجيع وبئر معونة).

٩ البخاري، بحسب ما أورده عن واقعتي (الرجيع وبئر معونة).

٢- شهداء الرجيع وبئر معونة

يجمع شهداء الرجيع وشهداء بئر معونة هدف واحد هو تفقيه الناس في دين الله وسنة نبيه، والأمر بالإرسال هو رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن هوى، ولا يأمر عن هوى أيضاً، إنما هو وحي من الله سبحانه، سواء انعقد بنص قرآني تتلوه الناس، وتتعبد به، أم انعقد بأمر من النبي ﷺ، وفي كليهما فإن النبوة تستشرف المستقبل في ضوء فهم الماضي والحاضر والمستقبل، وذلك الاستشراف هو ما يجعلنا نتدبر ثنائية (النصر - الهزيمة) تدبراً يرتفع إلى عدم القول بالهزيمة، لأن الأمر قائم على ثنائية (النصر - الشهادة)، وهي ثنائية تؤول إلى معنى مضمر واحد تتعقد عليه هو (النصر) كون الشهادة نصراً عاجلاً مباشراً مرتفعاً شأنه شأنه الله سبحانه. فيما النصر المباشر قد يكون متصلاً بالعالم الديني، وحيث لا يكون نصراً، وفي ضوء ذلك يظل النصر بوحي الشهادة حقيقياً، وتبقى الشهادة النصر الأكبر؛ لذا فقد أرسل رسول الله ﷺ أصحابه من (شهداء الرجيع وبئر معونة) إلى النصر لا الهزيمة، وإلى الدائم لا الراهن المؤقت؛ لأن النبي ﷺ لا يكرر فعل الإرسال في الهدف نفسه، والموضوع ذاته، وإلى مرسل إليه تحيط به وبالطريق إليه وتحقيق الهدف من الإرسال مخاطر جمة، ذلك الإرسال ضامن أن الفشل غير وارد، وأن التبليغ متحقق، سواء بإبلاغ الناس، ونشر الفقه في الدين بينهم، وتدبر سنة النبوة من لدنهم، أم بالشهادة الخالصة لله، انطلاقاً من السعي لأجل ذلك وفيه. وربما كانت الشهادة أسبق للنبوة لمكان الخلوص إلى الله عزراً بين يدي ذلك كله. ثم إن الإرسال في التفقيه في دين الله يقارب الإرسال في الحروب للدفاع عن الدين نفسه، بيد أن الإبلاغ أسبق منه عزراً للناس، وأبلغ منه نصحاً في المعنى، عندما ينشد الناس الحقيقة مسافة وصول لله. ولذا فقد صدر الإرسالان: الرجيع وبئر معونة عن الوحي الإلهي نفسه بغية تحقيق الهدف نفسه، وهو ما تكررت الإشارة إليه عند المؤرخين؛ فقد ذكر المؤرخون (أن رهطاً من عضيل والقارة جاؤوا إلى رسول الله ﷺ في صفر من سنة أربع للهجرة طالبين إليه أن يبعث معهم نفرأ من أصحابه لأجل أن يفقهوا الناس في الدين، ويعلمون الناس شرائع الإسلام، وسنة نبيه،

فبعث معهم ستة من أصحابه هم: عاصم بن ثابت وخبيب بن عدي وزيد بن الدثنة ومرثد بن أبي مرثد وخالد بن البكير وعبدالله بن طارق ، فخرجوا حتى إذا كانوا بالرجيع غدر بهم المشركون، فقتلوا ثلاثة، وأسروا ثلاثة آخرين باعوهم إلى مشركي قريش ممن قُتِل أولياؤهم في بدر فقتلوهم وصلبوهم^{١١٠}.

لم يكن استشهادهم هزيمة، بل كان انتصاراً، ومع المكوث الدائم بين يدي الحق، فإنَّ الشهادة بالحق ثباتاً عليه، واتصلاً بكلماته من دون تبديل شهادة انتصار على الآخر المشرك، وشهادة انتصار للمتممي الموالي الماكث على الحق أسوة بهم؛ لأن الحياة في هذا النهج منظور إليها بعين من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١١١)، لأن انتهاءهم خلوص لله؛ لذلك هم باعوا لله؛ المال والنفس والأهل، ومن ثمة فلا هزيمة في موتهم الذي كان بأن قتلهم عدوهم، لأنهم صاروا إلى الحياة الدائمة، التي هي نصر دائم، لا موت بعده، حيث الحق حيّ دائم، والوصول إليه استشهاداً أنصع مناهج النصر إشراقاً ووصولاً للبصيرة.

وهذا الغدر الذي وقع في غيابة جُبهِ شهداء الرجيع، تكررت مع صحابة من القراء في واقعة (بئر معونة)، حيث أورد مسلم في صحيحه عن أنس قال: جاء ناس إلى النبي ﷺ فقالوا: أن ابعث معنا رجلاً يعلمونا القرآن والسنة؛ فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار يقال لهم: القراء في زمانهم، كانوا يحتطبون بالنهار، ويصلّون بالليل، وأمرَ عليهم حرام بن ملحان، حتى إذا كانوا ببئر معونة على بعد مائة وستين كم من المدينة غدر بهم عامر بن الطفيل، حيث ذهب إليه عامر بن ملحان، ومعه رجلان، كان أحدهما أعرج، فقال لهما حرام كونا قريباً حتى آتيهم، فإن أمنوني كنتم آمنين، وإن قتلوني أتيتم أصحابكم، فذهب إليهم، فجعل يحدثهم، ولكنهم أومأوا إلى رجل فأتاه من خلفه

١٠ ابن هشام، ٤/ ١٢٢-١٢٨.

١١ الطبري محمد بن جرير، تاريخ الامم والملوك، ط ١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧)، ٤/ ٢٠٩-٢١١.

فقطعنه فصار ينضح بدمه على وجهه ورأسه ويقول: فزْتُ ورب الكعبة، ثم اجتمعوا عليهم فقتلوه جميعاً غير الرجل الأعرج الذي كان مع حرام بن ملحان فإنه صعد على رأس جبل، وهناك عمرو بن أمية الضمري الذي أسره، ثم خلا عامر بن الطفيل سبيله لما أعلمه أنه من مضر^{١٢}.

واستشهاد القراء في (بئر معونة) ليس هزيمة أيضاً، لأنهم أبلغوا بالموت المعنى من الحياة عندهم، وهو ليس معنى عابراً، ولا هو موقف من الحياة بين يدي الموت، كان انتصاراً بالموت على الزائل من الحياة، لأنهم أمّدوا الزمان بالمعنى مدداً أوّله دماؤهم واستمراره، وليس آخره ما ستكون عليه رسالة النبوة التي حملوها يعلمون الناس القرآن والسنة فكان استشهادهم قرآناً أيضاً، وكان التزامهم بالمضي لما بعثهم إليه النبي الأكرم ﷺ التزاماً هو من أبلغ معاني الحياة في السنة النبوية. ولذا فقد أضاء موقفهم القرآن العظيم بأنصع حق في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۖ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠)، وقد أجمع المفسرون تقريباً أنها نزلت في شهداء بئر معونة^{١٣}، حيث نص القرآن العظيم؛ أنهم ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون. ولأنهم قتلوا في سبيل الله فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون. ولأنهم يصلون أصحابهم بالحق فقد أمنوهم بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فقد نفت الآية عنهم الموت لتثبت الحياة، وجوع الدنيا لتثبت أنهم عند ربهم يرزقون، والخوف والحزن لتثبت أنهم فرحون مستبشرون، ونفت عنهم الانقطاع لتثبت أنهم فرحون مستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم. ليكون اتصاّهم بأنفسهم وبربهم وبالأخر المتمي لهم اتصاّلاً قائماً على الدائم النافع الماكث في الأرض.

وكان موقف رسول الله ﷺ من بعثهم أشبه بموقف يعقوب من يوسف حين بعثه مع إخوته.

١٢ النيسابوري، مسلم أبو الحسين بن الحجاج بن مسلم القشيري، الجامع الصحيح (صحيح مسلم)، د. ط. (بيروت - لبنان: دار الفكر) ١٩٦١ / ٤.

١٣ الدمشقي، ابن كثير، تفسير ابن كثير، وضع حواشيه وعلق عليه، محمد حسين شمس الدين (بيروت: دار الكتب العلمية).

١٤ البغوي، ابن مسعود، تفسير البغوي، حققه وخرج أحاديثه، محمد عبدالله النمر، عواد حميد، سليمان مسلم (دار طيبة للنشر والتوزيع).

١٥ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن (دار العلوم).

فقد قال رسول الله ﷺ لما طلبوا منه أن يبعث معهم من أصحابه مَنْ يعلمهم دين الله وسنة نبيه بأن قال: (إني أخشى عليهم أهل نجد)، ولكن أبا البراء قال: أنا جار لهم، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك^{١٦}، ولكن خشية النبي ﷺ من الغدر تحققت، غير أن ما تضمّره من نصر، وما لا تنطوي عليه من هزيمة هو ما يجعل المرء يتنبه إلى أن النبي الأكرم ﷺ يوحى بأن النصر هو المعنى الذي تؤول إليه حالهم من ثنائية (النصر - الشهادة)، وما كان من كرامات بقيت مستمرة بعد استشهادهم هي بعض ما تضمّر الشهادة من نصر مستمر، من ذلك كرامة عامر بن فهيرة الذي استشهد فبلغ من كرامته عند الله أن عدّوه عامر بن الطفيل كان يقول: لما قتل بن فهيرة رأيته رُفِعَ بين السماء والأرض حتى رأيت السماء من دونه^{١٧}.

وقرب موقف النبي الأكرم ﷺ هنا من نبي الله يعقوب عليه السلام من نبي الله يوسف عليه السلام حين طلب إليه إخوته أن يبعثه معهم ليرتع ويلعب، ثم ما لبثوا أن غدروا به، وألقوه في غيابة الحب!!! وبحسب ما أوحى به الآيات المباركات في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ إِنِّي لَخِزْنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ * فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (يوسف: ١١-١٦)، مع أن النبي يعقوب عليه السلام يعلم بما تؤول إليه حال النبي يوسف عليه السلام مع إخوته حين قال لبيه: إخوة يوسف: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٨٦)، وتكرر ذلك العلم للنبي يعقوب عليه السلام أكثر، حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٩٦)، وإن خشية يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام من إخوته خشية من يرى ما سيحدث، ولكنه يصبر محتسباً، لأنه يعلم من الله ما لا يعلمون، ويرى في المستقبل ما لا يرون، يرى بوحى الله عاقبة

١٦ البغوي.

١٧ البغوي.

الأمر فهو يصبر محتسباً، مفوضاً الأمر لله سبحانه. ولكن عاطفة الأبوة تجري منه إلى مستقرها وصولاً إلى ما كان من قميص يوسف بين يدي البشير ذاك الذي ارتد على إثره بصيراً. كذلك كانت خشية النبي محمد بن عبدالله ﷺ على أصحابه من غدر النجدين بهم، خشية ترى بعين الوحي ما سيؤول إليه حالهم من انتصار الشهادة بالموت على الحياة انتصار الوصول إلى الحياة الدائمة للشهداء، والحياة الدائمة للمعنى القرآني الذي يراه النبي ﷺ بعين من وحي، مما تتعذر رؤيته على سواه من الناس حتى صحابته الذين بعثهم إلى أهل نجد يدعونهم إلى أمر الله، عسى أن يأتيهم ربهم رشداً. وكانت عاطفة النبوة التي هي عاطفة أبوة في كثير من معانيها هي التي صدرت عنها خشية النبي الأكرم ﷺ على أصحابه. مع أن ما يستشرف من عواقب الأمور مما هو موصول بنصر الله الذي وعد به النبي ﷺ وعداً إلهياً هو النصر الذي يعرفه النبي ﷺ معرفة يقين، ويدركه أصحابه إدراكاً اعتقادياً إيماناً.

٣- ثنائية: (الهزيمة - الانتصار)

ثنائية: الهزيمة - الانتصار متصلة بالفهم المادي المباشر، غير أن المبادئ والقيم ومعطياتها وثوابتهما تذهبان إلى القول بثنائية: الشهادة - الإنكار، لأن القرآن العظيم بحسب قوله سبحانه في الآية (١١١) من سورة التوبة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. هنا بحسب النور القرآني شهادة المؤمنين ببيعهم الذي هم به مستبشرون، ونأيهم عن الإنكار الذي هم به معنيون، لأن الشهادة اعتراف بالمكوث النافع للمعنى في الأرض، والإنكار أمامها ضرب من الهزيمة، حيث المنكر مهزوم وإن حاز على مرادات الإنكار أمام شهادة المؤمنين، حيث المؤمن شاهد حق، والمنكر له شاهد باطل، ومن ثمة فلا هزيمة أمام شاهد الحق طالما هو ماكث بين يدي شهادته، ولا انتصار

للمنكرين طالما هو أنكر حقاً ما كُثِّرَ في الأرض نافعاً للناس، جانياً في الماء، فالمنكر هناك مهزوم وإن تحوّل لحظة الإنكار على مراداته المادية المباشرة، كونها هزيمة في المحصلة الأخيرة من المعنى. وشراء الله أموال المؤمنين وأنفسهم انتصار سابق حاضراً مستمراً، حيث المعنى هنا واحد، وحيث الخالق سبحانه، المعبود تعالى واحد لا شريك له، وفي دوال آية الشراء المباركة هذه من التعبير ما يحيط به فعل الثبات على الموقف ولا يؤدي وصفه عالم القول، ولكن لي أن أذكر اسم السورة المباركة وهي التوبة، ورقم الآية وهو (١١١)، وبعد ذلك معنى الشراء في الآية المباركة نفسها بوصفه انتصاراً دائماً مستمراً طالما باع المؤمنون مستبشرين ببيعهم.

فأما سيميائية رقم الآية المباركة، فقائمة على الـ (واحد) حيث المعبود واحد لا شريك له، وحيث البيع واحد لا رجعة عنه، وحيث الانتصار قائم لا شك فيه، وحيث الإنكار هزيمة وإن تعددت أوجهه. وأما اسم السورة فيوحي بقوله سبحانه فيعود بالتوبة إلى الخلوص إلى الله نجياً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحریم: ٨)، فإذا كان المؤمنون الذين يتوبون إلى ربهم يكفّر عنهم سيئاتهم ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، فإي انتصار حققه المؤمنون الذين اشتروا الحق وباعوا الباطل مخلصين لربهم الدين؟ ذلك الانتصار حققه المؤمنون بـ (الشهادة) التي هي انتصار جامع لمعاني الفوز يقابلها في أقصى الضياع (الإنكار) كونه أقصى مع يقع الإنسان فيه وأقساه، لأن إنكار وحدانية الله، والقول بالشرك فيها هو الهزيمة التي لا يرجى لها فوز، ولا تنفع معها شفاعاة، بدلالة قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٨)، ومن ثمة فلا نصر مع الشرك، ولا هزيمة مع الشهادة بأن الإيمان يبعث على الحق، ويجري من النصر مجرى المعنى من الحقيقة. حتى أن حاصل الدروس المتحصلة من الشهادة تفصح عن:

- الشهادة نصر دائم باعث على الحق، سواء انحسر عن تحقيق المراد المادي الدنيوي المباشر، أم لم يحقق، لأن مجرد الشهادة في هذا الشأن بحسب كل إشاعة للحق يجري مجرى النصر الدائم.

- أدت الشهادة في واقعتي: الرجيع وبئر معونة من المعاني الدائمة الجريان في ملهات الإيمان لدى الناس ما يحقق النصر الكامل في المعنى لدى الناس، والمآل إلى الله سبحانه، ولا سيما أن من إنتاجية حاصل ذلك: الإيمان الحق وكراماته، والثبات ومعطياته، والموقف من الحواس والمادة والزمان والمكان وما تؤول إليه، حتى أنه انتصار في المبنى من المادة والمعنى من الإيمان المتصل بهائل آية الشراء: (التوبة / ١١١).

- أقامت الشهادة في واقعتي: الرجيع وبئر معونة الدليل على النصر بمثله، حيث يتساوى النصر والشهادة لدى المؤمنين بالمآل، ولكنها أرفع نصراً بما كان من الموقف، وجرت فيه من الكرامات التي أجمع المفسرون، ولا سيما التاريخيون منه على معطياتها بشكل لافت.

- آية النصر بالشهادة هي آية حياة، لأن الوصول منها إليها معجزة في الإيمان، ودليل على الثمر في الأرض، وهي آية في الحياة في صورتها الأخروية الدائمة، وليس في هاجسها الدنيوي المؤقت، حتى أن أسلوب التعبير عن ذلك تضمن حرف العطف (بل)، أما آية (الشهادة) فقد استهلّت بـ (النهى): (ولا تحسبن)، ثم قدمت القول بنفي الموت عن المؤمنين، لتخلص إلى نصرهم: (بل أحياء عند ربهم يرزقون)، لأن (آية النصر - الشهادة) آية تدبر بالقلب وليس بالنظر المادي المباشر.

٤- المعنى القرآني

يمثل المعنى القرآني الرؤية الإلهية الجامعة المانعة لكل معنى ينص عليه خطاب الله سبحانه وتعالى، ومن ثمة فهو شامل أبدي، دائم سرمدي، يصدر عنه الفعل ويرتد إليه قول الناس حين ينشد الحقيقة، لا يتحدد بالأهواء، ولا يتبدد في الاختلاف، ماكن في الأرض بما ينفع البشر والحجر، يرقى إليه الفعل إذا قصد الصواب، ويتمثله القول إذا قصد الإقناع، يصل إلى بعض ثرائه الاعتقاد

القلبي الخالص، ولا يتفهّمه الشقاء المادي الخالص في الطرف الآخر من الموجودات. وهو يجمع اللفظ إلى ما ينطوي عليه من إمكانات تتسع لكل ما يمكن أن تصل إليه قلوب الناس التي يعقلون بها، ولا ينحسر عند ضعف الوصول إليه من لدن المتلقين، فهو هائل المكنات بين يدي اتساع القراءات. من خواصه: الديمومة والإحاطة، وفاعلية الخلق، والاستجابة لخالص السرائر، ونقاء البصائر، وكلما تدبرته القلوب تجدد، وكلما وعته تعدد في مناهل ثرائه. واتصاله في أول النزول بمناسبات معنية لا يقيده ويخلع على وجود المناسبة ديمومة المعاني الصادرة عنها، ومن ذلك ما كان من واقعتي: (الرجيع) و(بئر معونة)، حيث تتبديان للنظر المادي أنها هزيمتان لحقتا بالجمع الإسلامي المؤمن، ولكنها يتجليان في المعنى القرآني على أنها انتصار للمؤمنين، وبلوغهم من لدن أنفسهم عذراً من نصر، وموتاً من انتصار حتى خصّ أي القرآن ذلك في قوله سبحانه في آية الشهداء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٦٩ - ١٧١).

نزول آيات الشهداء في (واقعة شهداء بئر معونة) بحسب المفسرين^{١٨ ١٩ ٢٠} تؤدي معنى النصر قرآنيّاً بما لا يشبه المعنى المادي الشائع، حيث يرد الموت استشهاداً على أنه أعلى مراتب النصر وأعز درجاته لما ينطوي عليه: من حياة لا موت معها، ولا فيها، ومن رزق غير ممنون، ولا مقطوع، ومن فرح موصول برضا الله وفي رضوانه، ومن فضل من الله هائل، ومن استبشار بالغ يصل ثراؤه حدّاً أن يتمنى من يعيشه لو أن الذين هم خلف الشهداء في دنيا الناس يلحقون بهم عبر منهج هذا الاستشهاد، ومن حضور لا خوف معه ولا حزن، ومن بشريات موصولة بنعم الله وفضله، ومن مكوث بين يدي عدالة إلهية لا يضيع فيها أجر المؤمنين؛ وفي كل ذلك من معاني النصر ما يصل الدنيا بالآخرة، والموت بالحياة الدائمة، والإيمان بالوصول إلى متبنياته

١٨ الطبرسي، ١ / ١٨٧.

١٩ البغوي.

٢٠ الدمشقي.

وخلاصاته في الدار الآخرة. وهذا ما يفسّر النصر الذي صار إليه شهداء واقعتي: (بئر معونة والرجيع) في الكرامات التي اتصلت بهم بعد استشهادهم بخاصة، وفي الأقوال التي صدرت عنهم بين يدي ذلك في لحظات الارتفاع على الموت بالشهادة عينها من مثل قول حرام بن ملحان (فزتُ وربَّ الكعبة) ^{٢١}، ثم ما توحى به كراماتهم التي ألمح البحث - هنا - إلى بعضها. وقبل ذلك كله فإن آيات الشهداء الثلاث تقدّم شهادتهم بوصفها الحياة الجامعة المانعة، الحياة في بُعدها المثالي المتمنى، وهذا ما لا يحققه النصر المادي المباشر القائم على غلبة العدو في (مكان الواقعة فقط)، لأنها تقدّم الغلبة الدائمة المستمر، في صورة المعنى الجامع لمعطيات الشهادة في نورها الأكمل، لذا يقابل الشهادة الإنكار لا الهزيمة، ويمثلها الخلود لا الموت في الرؤية التي يوحى بها المعنى القرآني المبارك في آيات الشهداء.

٢١ البخاري، محمد بن إسحاق، صحيح البخاري، بتحقيق: مصطفى الذهبي (دار الحديث)، فيما أورده عن شهداء (الرجيع و بئر معونة).

الخاتمة

في واقعتي: بئر معونة و الرجيع استشهد نخبة من صحابة رسول الله ﷺ فكان ذلك الاستشهاد انتصاراً للدعوة الالهية -المحمدية ، ليس بالمنظار المباشر بل هو الوصول بالمعنى الرسالي القرآني إلى أنقى سبل التبليغ و النصيح و الارشاد حد بلوغ الحياة بالموت، أو النصر بالشهادة .

استيعاب الشهادة بوصفها نصراً ممتداً من الدنيا الى العلياء، و من الحياة المؤقتة الى الحياة الدائمة، يتحقق عند مكوث القلب في ركن الايمان متمسكا بالعروة الوثقى، و يقوم استشهاد الامام الحسين بن علي (عليهما الصلاة والسلام) في واقعة الطف ليمثل هذه الرؤية القائمة على: الديمومة بالعطاء، و على النصر الدائم بالشهادة الراشدة الهادية المهدية .

ما كان للرسالة الالهية المحمدية السمحة أن تصل للناس، نفعا ماكثا في الارض من دون نهج الشهداء في واقعتي (الرجيع وبئر معونة) لأن غدر الكافرين يحضر في كل زمان ومكان، وهو ما يستدعي شهادة تدمغه لأنه زاهق بدءاً ومآلاً فهو النهج الملهم والدرس الدائم .

يمثل المعنى القرآني الصادر عن آيات الشهداء التي أوردتها البحث مفهوماً يكتمل بآية البيع التي اشترى فيها الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، كونه الوعد بحياة من نصر دائم مستمر .

المصادر

القرآن الكريم

ابن هشام، السيرة النبوية، بتحقيق مصطفى السقا و
آخرون (مصر - القاهرة: مطبعة البابي الحلبي وأولاده،
١٠٣٦).

البخاري، محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري،
بتحقيق: مصطفى الذهبي (دار الحديث).

القرطبي، ابن عبد البر، الاستيعاب في أسماء
الاصحاب، ١، (بيروت، دار احياء التراث العربي،
١٩١٠).

البغوي، ابن مسعود، تفسير البغوي، حققه وخرج
أحاديثه، محمد عبدالله النمر، عواد حميد، سليمان مسلم
(دار طيبة للنشر والتوزيع).
ابن الجوزي، صفوة الصفوة.

النيسابوري، الحجاج مسلم بن، صحيح مسلم،
تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت: دار احياء التراث
العربي).

الدمشقي، ابن كثير، تفسير ابن كثير، وضع حواشيه
وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين (بيروت: دار
الكتب العلمية).

الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن (دار العلوم).
النيسابوري، مسلم أبو الحسين بن الحجاج بن
مسلم القشيري، الجامع الصحيح (صحيح مسلم)، د.
ط. (بيروت - لبنان: دار الفكر).

الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الامم والملوك، ط ١
(بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧).
العسقلاني، ابن حجر، الإصابة في معرفة الصحابة.